الوليد بن عقبة وشعره السياسي

نبيلة عاكف المقبل و عرسان حسين الراميني*

ملخص

يتناول هذا البحث سياسيا بارزا في صدر الإسلام، وشاعرا ترك لنا ثروة شعرية، تتمحور أساسا حول قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وذلك لتحقيق فهم أفضل، أولا، لمكانته السياسية، وثانيا، لنتاجه الشعري، وبالنتيجة، لتعميق إحساسنا بالحقيقة التاريخية آنذاك، وتوسيع إدراكنا لأهمية الشعر في إزالة ما يمكن أن يكون قد أصاب هذه الحقيقة من تشويه على يد الرواة. وعلى هذا الأساس، ينقسم البحث قسمين اثنين، أحدهما مخصص لمناقشة الملف الإداري للوليد بن عقبة، والثاني لدراسة نتاجه الشعري. وفي القسم الأول جرت مناقشة مسألتين اثنتين، دار حولهما ما وصل إلينا من سيرة الشاعر: الأولى ادعاء المفسرين بأنه هو "الفاسق" المذكور في سورة "الحجرات" في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"، والثانية الشهادة عليه بشرب الخمر من قبل رجال من أهل الكوفة حيث كان واليا في خلافة عثمان. أما القسم الثاني من البحث فقد تناول حادثة مقتل الخليفة عثمان كما ظهرت في شعر الوليد بن عقبة، وحاول أن يتعرف إلى وجهة النظر الأموية بهذا الشأن، في مقابل ما يهيمن على الرواية التاريخية من اتجاهات تمثل وجهات نظر تبناها أعداء الأمويين، وكان للخلاف المذهبي أثر فيها.

كلمات دالة: الوليد بن عقبة؛ شعر إسلامي؛ أمويون؛ عثمان بن عفان

مقدمة

هناك بعض الحقائق في حياة الوليد بن عقبة بن أبي معيط تجعل منه موضوعا مهما للبحث لدى دارسي الأدب العربي القديم. فهو، من جانب، شخصية سياسية بارزة جدا في فترة ذات خطورة بالغة في التاريخ الإسلامي، لأنها أرهصت لانقسامات سياسية واختلافات مذهبية ما زالت قائمة حتى يومنا هذا. وهو، من جانب آخر، شاعر كشف بشعره عن تجربته، المختمرة، في مضمار السياسة، وترك لنا عددا لا بأس به من القصائد (المجتزأة)، ساهمت في تشكيل بدايات الشعر العربي السياسي المعبر عن انعدام وحدة المسلمين منذ مقتل عثمان. فالوليد بن عقبة يمثل، بهذا الاعتبار، نافذة نطل منها على الطريقة التي بدأ الشعر العربي يتفاعل فيها مع أحداث

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد ـ الأردن.

سياسية، تتجاوز الانقسامات ذات الطابع القبلي إلى الانقسامات داخل صف "الأمة"، ونرصد من خلالها، في الوقت نفسه، طبيعة هذا التفاعل.

على أن صورة الوليد بن عقبة، من جانب آخر، تعرضت لقدر كبير من التشويه، شأنه في ذلك شأن سائر رجال بني أمية. فتدوين التاريخ العربي الإسلامي جرى في دوائر تلهج بالعداء للأمويين، سواء في أوساط المؤرخين ذوي الميول الشيعية، أو في أوساط مؤرخي السنة، الذين مثلوا وجهة نظر الخلافة العباسية.

لكن شخصية الوليد بن عقبة الإدارية، من جانب، والارتباط السياسي لشعره، لم يحظ أي منهما بمناقشة جادة في المقدمة المقتضبة التي مهد بها نوري القيسي لجمع شعره ضمن كتابه "شعراء أمويون"، وهو الجهد الوحيد المخصص للشاعر وشعره. وهناك أيضا ملاحظات تتعلق به سجلها دارسون آخرون، مثل شوقي ضيف[1]، وأحمد الحوفي[2]، وعزيزة بابتي[3]، وسجيع الجبيلي وقصي الحسين[4]، لكنها ملاحظات سريعة، خاطفة، لا يبدو أنها مؤسسة على نظر عميق واستقصاء كاف. إزاء ذلك، تسعى هذه الورقة البحثية، وهي تعود في أصولها إلى رسالة علمية قدمت لنيل درجة الماجستير بجامعة اليرموك[5]، إلى معاينة هاتين المسألتين، أي النظر في ملفه الشخصي، من أجل فحص مدى صحة ما يشتمل عليه من تهم استهدفت أخلاقه وأداءه الإداري، ثم مراقبة كيف تفاعل شعره مع أحداث أول فتنة عصفت بأركان الخلافة، وبخاصة جانبها المتعلق بمقتل عثمان بن عفان. وهنا، فيما يتعلق بالشعر، نود أن نسترعي الانتباه إلى أن المناقشة تسعى إلى فهم الرواية التاريخية فهما أفضل في ضوء الشعر، مع التأكيد على أن هذا الشعر إنما يمثل وجهة النظر الأموية ذلك الحدث الجلل.

الشخص والإدارة

هو أبو وهب الوليد بن عقبة بن أبي معيط؛ واسم "أبي معيط" أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وفي رواية أن جد أبيه، ذكوان، كان عبدا لأمية بن عبد شمس، فاستلحقه بنسبه[6] والوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[7]، الأخت التوأم لعبد الله بن عبد المطلب[8]، أبي النبي محمد عليه السلام. أما أبوه، أبو معيط أبان، فكان بين من أسرهم النبي في موقعة "بدر الكبرى" وضرب أعناقهم[9]؛ وكان له من الأبناء من زوجه أروى، غير الوليد، عمارة وخالد وهشام، ومن البنات أم حكيم وأم كلثوم، وقد هاجرت هذه الأخيرة إلى المدينة بعد صلح الحديبية، ولم يردها النبي حين قدم عليه أخواها الوليد وعمارة يطلبان منه ردها إلى قومها[10]. وكان للوليد بن عقبة من الأبناء أبان، ويعلى، وعثمان، وعمرو وهو الشاعر أبو قطيفة[11].

والوليد بن عقبة أحد رواة الحديث النبوي، وروى عنه كل من أبي موسى عبد الله الهمداني، وعامر الشعبي، وحارثة بن مضرب[12]؛ ويقول البري "لم يرو الوليد رواية يحتاج فيها إليه"[13]. ومن جانب آخر، تصفه المصادر بأنه "كان من أكثر رجال قريش ظرفا، وحلما، وشجاعة، وجودا، وأدبا"[14]. ومن أمثلة جوده ما رواه ابن قتيبة من أنه بعث إلى الشاعر لبيد بن ربيعة العامري بمائة ناقة لينحرها وفاء بنذر كان قد قطعه على نفسه منذ الجاهلية بأنه سينحر الإبل ويطعم الناس كلما هبت ريح الصبا، فأمر الوليد ابنته، كما تقول الرواية[15]، أن تشكره على جوده بأبيات من الشعر، فقالت:

إذا هَبَتْ رياحُ أبي عَقيـلٍ دَعَونا عندَ هَبتِّها الوليـدا
أصمَ الأنفِ أصيدَ عبشميـا أعانَ على مُروءتهِ لَبيـدا
بأمثالِ الهضابِ كأنّ ركبـا عليها مِن بني حامٍ قُعـودا
أبا وهبٍ جزاك اللهُ خَيـرا نَحَرْناها وأطعَمْنا الثريـدا
فعُدْ إن الكريمَ له مَعـادٌ وظنّي يا ابنَ أروى أن تعودا

وكان للوليد بن عقبة علاقة صداقة وطيدة بالشاعر أبي زبيد الطائي، ابتدأت منذ أن كان الوليد عاملا على صدقات بني تغلب، وهم أخوال أبي زبيد، في زمن عمر بن الخطاب. إذ تذهب الرواية إلى أن جماعة من بني تغلب ظلموا أبا زبيد في دين كان له عليهم، فأخذ له الوليد بحقه، فقال فيه أبو زبيد[16]:

إن الوليد له عندي وحُق لـه ود الخليل ونصح غير مذخـور
لقد رعاني وأدناني وأظهـرني على الأعادي بنصر غير تعذير
فشذّبَ القوم عني غيرَ مكترثٍ حتى تناهَوا على رغمٍ وتصغير
نَفسي فداءُ أبي وهبٍ وقَلَّ لـه يا أمَّ عمرو فحِلّي اليومَ أو سِيري

وقد شهد الوليد بن عقبة وقعة صفين مع معاوية بن أبي سفيان، كما نفهم من نصر بن مزاحم المنقري، في سند[17]، ومن الطبري في سند مختلف[18]؛ لكن هناك رواية تذهب إلى أنه اعتزل أحداث الفتنة وأقام في الرقة حتى وفاته فيها سنة 61هـ[19]؛ إلا إن هذه الرواية بادية الخطأ بالنظر إلى سيرة الوليد عموما، فضلا عما يزخر به شعره من تحريض معاوية على علي بن أبي طالب وعدم التواني في المسير إلى قتاله.

ويحتوي السجل الشخصي للوليد بن عقبة على قضية دار حولها جدل واسع في المصادر، وهي صلته بتفسير الآية الكريمة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ." (سورة الحجرات/6) فقد ذهب المفسرون إلى أن "الفاسق" في هذه الآية هو الوليد بن عقبة. وفي الحديث عن المناسبة، يذهب المفسرون إلى أن النبي بعث الوليد بن عقبة ليجمع صدقات بني المصطلق، فذهب ثم عاد فأخبر النبي أنهم منعوه الصدقة وأخافوه، فبعث النبي إليهم خالد بن الوليد في سرية، فلما وصلهم أخبروه أن الوليد افترى عليهم، وأنهم لم يمنعوه صدقة أموالهم، فرجع خالد بخبرهم إلى النبي، فنزلت الآية الكريمة.

وليس هناك خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن، كما يقول ابن عبد البر[20]، في أن الآية الكريمة نزلت في الوليد بن عقبة. لكن المصادر تتضمن، في الوقت نفسه، ما يشكك في صحة معطيات المفسرين. فالإمام البخاري[21]، يروي حديثا متصل السند، نفهم منه أن الوليد بن عقبة كان صبيا حدثا حين فتح النبي مكة، إذ جاءت به أمه إلى النبي ليمسح على رأسه، كما فعلت أمهات أخريات من قريش. وهذا الذي يفهم من حديث البخاري إنما يتعزز بما يقال من أن أهل الكوفة نقموا على الخليفة عثمان رضي الله عنه، أنه ولّى عليهم الوليد بن عقبة وهو صغير في السن، فضلا عن أن الوليد ما كان، في الأحوال العادية، ليحدث بحديث يعرف من يحدثهم به أنه يكذب عليهم، حين يقابلون بين سنه حينئذ وسنه وقت فتح مكة. وهكذا، إذا صح حديث البخاري، إذن، ثبت بطلان صلة الوليد بن عقبة بالآية الكريمة، لأنه كان ينبغي أن يكون رجلا مكتمل الرجولة ليبعثه النبي عاملا على الصدقة.

على أن ابن عبد البر[22] يشكك في صحة حديث البخاري ويصفه بـ "المنكر" و"المضطرب"، قائلا: "لا يمكن أن يكون من بعث مصدقا في زمن النبي صبيا يوم الفتح،" ومشيرا، من جانب آخر إلى أمور أربعة؛ أولها أن في سلسلة سند الحديث حلقة "مجهولة" هي "أبو موسى الهمذاني"، وثانيها أن هذه السلسلة تنتهي بالوليد بن عقبة نفسه، وثالثها ما يرويه "الزبير وغيره من أهل العلم بالسير والخبر،" كما يقول ابن عبد البر، من أن الوليد وأخاه عمارة "خرجا ليردا أختهما أم كلثوم عن الهجرة" بعد صلح الحديبية، ورابعها اتفاق المفسرين على أن الوليد بن عقبة هو المقصود بالآية الكريمة.

ومع ذلك، فابن عبد البر في حين يدلل على عدم صحة رواية "المسح على الرأس" فإنه لا يذكر، أو يهمل ذكر خبر في البلاذري يقول إن النبي توفي والوليد وال على عمل كان قد ولاه إياه[23]، وخبر آخر ينقله ابن أبي الحديد، يفيد بأن الوليد ولي عملا لعمر بن الخطاب[24]. ففي حين يؤكد هذان الخبران، إن صحا، ما يذهب إليه ابن عبد البر من أن الوليد بن عقبة لم يكن صبيا في زمن النبي، فإنهما، في المقابل، يثيران شكا قويا حول صحة ما يقوله المفسرون في الوليد، لأن

تفسيرهم لو كان دقيقا لما استعمله النبي، ولا عمر، على أي عمل وهما يعلمان أنه غير جدير بحمل الأمانة.

وليس هذا وحده ما يجعل رواية المفسرين موضع شك عميق، بل هناك نقد قد يوجه إلى مصادرهم أيضا. فهم يروون خبر الوليد بن عقبة مع بني المصطلق إما عن طريق سلاسل سند منقطعة، تقف عند مجاهد، أو قتادة، أو عكرمة[25]، ومن ثمّ، لا يمكن الركون إليها، وإما عن طريق سلاسل سند موصولة لكن في كل سلسلة منها من هو ضعيف أو مجهول، ومن ثم، لا يمكن الركون إليها كذلك. فهناك سند متصل إلى موسى بن عبيدة عن ثابت مولى أم سلمة، لكن موسى بن عبيدة هذا ضعفه النسائي، وابن المديني، وابن عدي[26]؛ أما ثابت فلا تذكره كتب الجرح والتعديل، مثل "ميزان الاعتدال"، و"لسان الاعتدال"، و"تهذيب التهذيب"، و"تقريب التهذيب". يضاف إلى ذلك، أولا، أن أم سلمة لم يعرف عنها أي خبر فيه ذكر لمولى لها يدعى "ثابتا"، وثانيا، أن خبر هذا السند لا يذكر الوليد بن عقبة بالاسم، بل يذكر أن "رسول الله بعث رجلا في صدقات بني المصطلق"[27].

وهناك سند متصل آخر، هذه المرة إلى ابن أبي ليلى، وفيه "يحيى بن معين عن إسحاق الأزرق عن سفيان [الثوري] عن هلال الوراق"[28]؛ ولا يترجم ابن حبان -وهو لا يترجم إلا للثقات- ليحيى بن معين، مع أنه يذكره في ترجمة "يحيى بن سعيد القطان"[29] ثم إنه لا يوثق ابنه محمدا[30]؛ ولا يوجد فيه ذكر، فضلا عن ذلك، لهلال الوراق.

والمشكلة تظهر أيضا في سند متصل ثالث، نجده في "جامع البيان في تأويل القرآن"" فيه "ابن سعد [صاحب كتاب "الطبقات"] عن أبيه عن عمه عن أبيه عن ابن عباس"[31]. فباستثناء ابن سعد وابن عباس، فإن علماء الجرح والتعديل يجهلون الأسماء الواردة في هذه السلسلة، وقد وصف الشيخ أحمد شاكر سند ابن سعد في هذا الخبر بأنه "مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة".

وهكذا، في ضوء ما سبق، لا بد من التعامل بقدر كبير من الريبة مع اتجاه المفسرين إلى إقامة صلة بين الوليد بن عقبة والآية الكريمة من سورة الحجرات، ويمكن، في الوقت نفسه، أن نقترح، بالنظر إلى ما يخبرنا به البلاذري من أن النبي توفي والوليد بن عقبة واحد من عماله، أي عمال الصدقة على الأرجح، أن النبي ربما بعثه على صدقات بني المصطلق، وأن إشكالا من نوع ما قد حدث، فتطور مع الزمن، بفعل عوامل سياسية ومذهبية، إلى هذه القصة التي يسوقها المفسرون.

ويغيب الوليد بن عقبة عن مسرح الأحداث المدونة (إن لم يكن هو المذكور في رواية سيف بن عمر بوصفه أحد قادة جيش خالد بن الوليد، والمرجح أنه ليس هو[32]) إلى أن يظهر من جديد

في زمن عثمان بن عفان، حين عزل الخليفة سعد بن وقاص عن الكوفة، في أعقاب خلاف مالي بينه وبين خازنها عبد الله بن مسعود، وولى مكانه الوليد بن عقبة[33]، وذلك في سنة 25هـ[34]؛ فوليها حتى سنة 29/ 30هـ حين عزله عثمان وولى مكانه سعيد بن العاص. وهنا، في هذا العمل أيضا، دار حول سيرته جدل كبير، وبخاصة فيما يتعلق بسبب عزله عن الكوفة.

فهناك خبر واسع الانتشار في المصادر يرجع سبب عزل الوليد بن عقبة إلى أن رجالا من الكوفة قدموا على عثمان بن عفان في المدينة، وشهدوا على الوليد بشرب الخمر. ويبدو أن هذا السبب غير قابل للنقض في ضوء انعدام أية معلومة أو إشارة، قد تثير شكا حول صحته، لكن الروايات بعد ذلك تتفاوت وتتضارب؛ وهنا، يمكن أن نميز فيها بين اتجاهين رئيسيين: الأول أن الخليفة لم يجد بدا من إقامة الحد على الوليد وعزله، والثاني أن الخليفة رفض التهمة الموجهة إلى الوليد بعد أن استمع إليه وإلى الشهود، لكنه، مع ذلك، عزله وولى مكانه سعيد بن العاص. وتحت هذين الخطين العريضين، وعلى الأخص تحت الخط العريض الأول، تندرج تفاصيل كثيرة، تتسم أحيانا بمبالغة مكشوفة. فروايات "إقامة الحد"، مثلا، تدعي أنه كان يصلي في الناس وهو مخمور، وأن الرجال الذين شهدوا عليه كانوا يراقبونه، فدخلوا عليه في إحدى الليالي خلسة فوجدوه يتقيأ من شدة شرب الخمر، فحملوه ووضعوه على السرير، ونزعوا خاتمه من يده، وقدموا الخاتم دليلا على غياب وعيه، وذلك حين وفدوا على الخليفة وتقدموا إليه بشهادتهم. وهذه الروايات تدعي أيضا أن علي بن أبي طالب هو الذي أصر على عثمان أن يقيم عليه الحد، وأن الخليفة طلب منه، أي من علي، أن يتولى جلد الوليد، فأوكل علي أداء المهمة إلى ابنه الحسن، فاعتذر له، ثم أوكلها إلى ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فقام فضربه أربعين جلدة وعلي يعد الضربات؛ وفي رواية أخرى أن عبد الله اعتذر أيضا، فجلده علي بنفسه.[35]

وفي المقابل، تذهب الرواية المخالفة، ومعظمها يرويها سيف بن عمر، أحد رواة الطبري الأساسيين، وينقلها عن غير سلسلة سند[36]، إلى أن ما كان الشهود قد وجدوه عند الوليد حين دخلوا عليه إنما هو "تفاريق من عنب". وفي هذه الرواية أيضا أن الذين شهدوا عليه بشرب الخمر "كان بينه وبينهم شنآن"[37]، وأن الخليفة أنبهم على شهادتهم، وتبرم من أن الرجل منهم "إذا غضب على أميره، رماه "بالباطل" وتوعدهم بالاقتصاص منهم[38]، أو أنه جلد الرجل الذي شهد عليه بشرب الخمر، كما جاء في رواية عن المدائني[39]. وهذه الرواية تتعزز بخبر يفيد أن عدي بن حاتم وفد على عثمان بن عفان، مع عدد من رجالات الكوفة، ليشهدوا ببراءة الوليد من التهمة المسندة إليه[40]. لكن الأهم من ذلك كله أن المفضل الضبي[41] يروي للحطيئة شعرا يتحدث فيه عن المكيدة التي حيكت ضد الوليد بن عقبة وعن الشهادة عليه بالباطل؛ وهذا الشعر مروي، في الأقل عبر سندين مختلفين، أحدهما ينتهي إلى الشعبي، وهو راوية ثقة من رواة الحديث[42]، والثاني إلى مطر الوراق، ويترجم له ابن حبان في الثقات[43]:

شَهِدَ الحُطيئة حينَ يلقى ربَّه أن الوليدَ أحَقُّ بالعُـذْرِ
خَلعوا عِنانَك إذْ جَرَيتَ ولو تَرَكوا عِنانَك لم تَزلْ تَجْري
ورأوا شمائلَ ماجدٍ مُتبرِّعٍ يعطِي على الميسورِ والعُسرِ
فنَزعتَ مكذوبا عليك ولَم تُرْدَدْ إلى عِوزٍ ولا فَقْرِ

ويقول المفضل بعد أن يروي هذه الأبيات: "ومن الرواة من يزعم أنه إنما قال،" ثم يذكر أبياتا تدين الوليد بدلا من أن تبرئه، وهي[44]:

شَهِدَ الحُطيئةُ حين يلقى ربَّه أن الوليدَ أحقُّ بالعُـذرِ
نادى وقد كَمُلتْ صلاتُهُمُ أأزيدُكمْ ثَمْلاً وما يَـدْري
لِيزيدَهمْ خيرا ولو قَبلِـوا لقَرَنْتَ بين الشفعِ والـوترِ
فأبَوا أبا وهبٍ ولو فَعَلوا زادت صلاتُهُمُ على العشرِ
كَفوا عِنانَكَ إذ جَرَيتَ ولو خَلّوا عِنانَكَ لَمْ تزلْ تجري

ونفهم من الإصفهاني أن رجلا من بني عجل قال هذه الأبيات يرد بها على الحطيئة[45]. أما الزبير بن بكار، وهو الذي ينقل رواية الشعبي، فقد قال بعد أن ذكر أبيات الحطيئة: "فزادوا فيها من غير قول الحطيئة،"[46] ثم يقتبس بعض ما ينسبه الإصفهاني إلى العجلي.

يبدو، إذن، أن هناك أساسا قويا للاعتقاد بأن تهمة "شرب الخمر" الموجهة إلى الوليد بن عقبة قد تم تلفيقها عليه ورميه بها، وأن هذه التهمة ما هي إلا جزء لا يتجزأ من حملة التشويه التي شنها خصوم بني أمية ضد رجالاتهم، كما هو معروف.

لكن في حين تشير المصادر إلى عداوات شخصية تقبع وراء التهمة، فإن السياسة ليست بمنأى عن السبب الحقيقي لإبعاد الوليد عن الحكم في الكوفة. فقد انقسم الكوفيون إزاء السياسات الاقتصادية، وبالتحديد إجراءات توزيع ثروة الفتوح، التي نفذتها الخلافة في مصرهم في زمن عمر بن الخطاب. وحين قدم الوليد بن عقبة واليا على الكوفة وجد أهلها، ممثلين في سادتهم، يصطفون في فريقين كبيرين: فريق يضم الجماعات ذات الأصول المتحضرة من عرب اليمن والحجاز عموما، ويسعى إلى تملك الأرض على حساب "الصوافي" ويمارس حياته هناك كما كان يمارسها في الوطن الأم، لكن اصطدم بسياسات غير إقطاعية انتهى إلى انتهاجها عمر بن الخطاب؛ وفريق آخر يضم الجماعات الأعرابية القادمة أساسا من صحاري العراق والبحرين ونجد، ويطالب بتحسين أوضاعه المالية بعد أن ساءت بفعل تدفق المهاجرين من تلك الصحاري

وإلحاقهم بأدنى طبقات العطاء، أو حتى إبقاءهم "على قائمة الانتظار" نتيجة لتوقف الزيادة في موارد لخزينة. وتشير الأدلة إلى أن الوليد بن عقبة عل الرغم من أنه يستطع تلبية مطالب أي من الفريقين، فإن سياساته المالية كانت تصب في مصلحة فقراء أهل الكوفة أكثر مما تصب في مصلحة أغنيائها. وهذه الرؤية للوضع في الكوفة تتضح أكثر حين نعلم أن سعيد بن العاص، حين قدمها واليا بعد عزل الوليد بن عقبة، كان يحمل معه مرسومين خليفيين اثنين جاهزين للتنفيذ، أحدهما توحيد قراءات القرآن الكريم، والثاني مبادلة أراضي الصوافي. وهذا المرسوم الثاني جاء ملبيا لطموحات الجماعات ذات الأصول الحضرية، إذ أتاح لها فرصة التملك على حساب الصوافي فظهرت، بالتالي، حالة من الإقطاع لم يعرفها المصر من قبل. فقد قضى ذلك المرسوم بحساب أنصبة الذين شاركوا في فتح العراق وعادوا فاستقروا في الجزيرة العربية، وبخاصة في مدن الحجاز، أي بحساب أنصبتهم في أراضي صوافي العراق، ثم "فرزها" بحيث يستطيع أصحابها مبادلتها مع من يملك أراضي في الجزيرة العربية، لكنه يسكن في العراق. وهكذا، بما أن سعيد بن العاص جاء إلى المصر بهذا المرسوم فهذا يعني أن الوليد بن عقبة كان يعارض مطالب الجماعات المتحضرة فيما يتعلق بنقل ملكياتهم من الجزيرة العربية إلى العراق؛ ولذلك، يخبرنا المدائني، في رواية طريفة جدا، أن "الناس كانوا يقدمون على عثمان يسألونه أن يعطيهم مكان ما خلفوه من أرض في الحجاز واليمن." فإذا كان هذا التصرف في أراضي الصوافي لم يحدث في ولاية الوليد بن عقبة، بل حدث في ولاية سعيد بن العاص، فمن الواضح إذن أن عزل الوليد حقق منفعة إستراتيجية لأحد طرفي الصراع في الكوفة، أي الباحثين عن الإقطاع من سادة القبائل الحضرية. وإذا كان مرسوم مبادلة الأراضي قد تسبب في حملة احتجاجات شديدة من جانب الجماعات الأعرابية، انتهت بمقتل الخليفة، فهذا يكشف عن بعد نظر سياسي تحلى به الوليد بن عقبة[47].

الشعر والسياسة

يتميز شعر الوليد بن عقبة، في مجمله، بأنه شعر سياسي؛ في الواقع، كثير من القصائد جاءت أشبه ما تكون برسائل موجهة إلى أطراف النزاع، ولذلك، نجد المؤرخين يقتبسون شعر الوليد في التأريخ للأحداث التي أعقبت مقتل عثمان بن عفان. ويلاحظ أن هذا الشعر يمتد على رقعة زمنية لا تتجاوز بضعة أشهر، تقع بين مقتل الخليفة ومسير معاوية لملاقاة علي بن أبي طالب في صفين؛ لذلك، كان النظر فيه مهما لفهم هذه المرحلة الدقيقة.

لكن قبل الخوض في مناقشة الارتباط السياسي لشعر الوليد، يجب الانتباه إلى أن الرواة عبثوا بهذا الشعر، سواء بإضافة أبيات إلى بعض قصائده، أو حذف أبيات منها، أو حتى بوضع قصائد كاملة ونسبتها إليه؛ وهذا واضح جدا في ثلاث من قصائده، تشتمل معا على أربعة وعشرين بيتا[48]. فهذه القصائد غير مسندة؛ يضاف إلى ذلك أن مصادرها ذات ميول شيعية (نصر

بن مزاحم، ابن أعثم، ابن أبي الحديد، البلاذري)؛ والأهم من ذلك أن مضامينها تثير شكا كبيرا، إذ تنطوي اثنتان منها على مدح مبطن لعلي بن أبي طالب، في مقابل نقد ساخر لشخصيات أموية، وتتضمن الثالثة بيعة الوليد لعلي بالخلافة، وهو ما لا يوجد في المصادر ما يدل عليه، فضلا عن أنه مستبعد جدا؛ حتى لو بايعه مرغما بسبب التهديد فإنه ما كان ليكتب شعرا في ذلك.

وعلى دارس شعر الوليد بن عقبة، أيضا، أن يتحرز ضد تأثير الصيغ المستخدمة في تقديمه؛ وذلك كما جاء في تقديم ابن أبي الحديد لإحدى قصائده، بقوله: "كان الوليد بن عقبة يبغض الأنصار، لأنهم أسروا أباه يوم بدر، وضربوا عنقه بين يدي رسول الله، فشتم الأنصار، وقال يهجوهم"[49] لكن لغالبية الأنصار موقف من عثمان، رفضه الوليد بن عقبة، كما سيتضح بعد قليل، وبالتالي، ربما بسبب هذا الموقف، وهو الأرجح، هجاهم الوليد وليس بسبب دفاعهم عن الإسلام، كما توحي عبارة ابن أبي الحديد.

وهناك قضية واحدة دار حولها شعر الوليد بن عقبة هي الثأر لمقتل عثمان بن عفان. فالوليد يؤكد أن الخليفة قتل مظلوما، إذ أغلق بابه عليه، وعرف أن محاصريه سيقتلونه، لكنه عرف أيضا أن الله سينتقم له منهم، كما اتضح لاحقا حين تشتت شملهم؛ ولذلك، كما يقول الوليد، طلب عثمان من المدافعين عنه، ممن اجتمع في ساحات الدار من بني أمية وسواهم، أن يلقوا سيوفهم، فالله سيعفو عنهم[50]:

وَكَفّ يديه ثم أغلق بابَـه وأيقن أن اللهَ ليس بغـافلِ

وقال لأهلِ الدارِ لا تقتلوهُمُ عفا اللهُ عن كلِّ امرئ لَمْ يقاتِلِ

فكيف رأيت اللهَ ألقى عليهِمُ الـــــعداوةَ والبـــــغضاءَ بعْدَ التواصلِ

ويريد الوليد بذلك أن يؤكد شرعية المطالبة بالقصاص من القتلة ووجوب الثأر للخليفة. ولهذا، يصفه بأنه "شريك نبي الله"، فضلا عن التذكير بمناقبه الأخرى، ويحصي منها: القوة، والعقل، والكرم، وسماحة الخلق[51]:

جزى اللهُ خيرا من خليلٍ مودةً أخي ذا الطَّوْلِ والحَوْلِ والنائل الغَمْرِ

شريكَ نبيِّ اللهِ عثمانَ ذا النُهى وذا الخُلُقِ المأمونِ في اليُسرِ والعُسرِ

وهذا الوصف للخليفة بأنه "شريك نبي الله" جاء في موطن آخر من شعره جنبا إلى جنب مع ذكر أمه، أروى بنت كريز، وذكر نسبها من جهة أمها، أم حكيم بنت عبد المطلب، جد النبي عليه السلام، أي أن عثمان والنبي يشتركان في نسب؛ وربما هذا هو المقصود بشركة عثمان للنبي عليه السلام "شركة حق غير ما نحلة ولا مستعارة"[52]:

يا ابنَ أروى ويا ابنَ أمِّ حكيمِ وقرومِ البطحاءِ أهلِ العَمارة

وشريكَ النبيِّ شِرْكَةَ حَـقٍّ غيرَ ما نِحْلةٍ ولا مُسْتعارة

وعثمان بن عفان، في نظر الوليد بن عقبة، هو خير الناس بعد "ثلاثة"، أي بعد النبي عليه السلام والخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[53]:

ألا إن خيرَ الناسِ بعدَ ثلاثـةٍ قتيلُ التُّجَيْبِيِّ الذي جاء من مِصرِ

ولذلك كله، كان قتل الخليفة جناية كبيرة، وبخاصة أنه لم يفعل شيئا مما اتهم به، وإنما هي أقوال لا أساس لها من الصحة، كما يتضمن شعره في موطن آخر[54]:

ورَمْيِ أبي عمروٍ بكلِّ عظيمةٍ على غيرِ شيءٍ غيرِ قالٍ وقيلِ

والخليفة لم يكن وحده المقتول، كما نفهم من شعر يخاطب به الوليد بن عقبة معاوية بن أبي سفيان، بل قتل معه غيره من بني أمية. ويستخدم الوليد، في الحديث عن قتلهم، كلمة "أبيروا" وكلمة "الهشيم"[55]:

وقومُكَ بالمدينةِ قد أُبيروا فهُمْ صرعى كأنَّهُمُ الهشيمُ

وتتفق الروايات على أن قتالا حدث في دار عثمان بعد أن تسلق إليها بعض المحاصرين، وعلى أن عددا من بني أمية سقطوا قتلى حينئذ، وأن عددا آخر أصابتهم جراح، منهم مروان بن الحكم. وتتفق كذلك على أن المحاصرين أشعلوا النار في الدار فاحترقت أبوابها، كما يقول الواقدي[56]، أو احترق بابها، كما يقول ابن إسحق[57]، أو احترق بابها وسقطت سقيفته، كما يقول سيف بن عمر[58]. وفي شعر حسان بن ثابت ما يؤكد حرق باب/ أبواب الدار[59]، وكذلك في شعر كعب بن مالك، إذ ورد في قصيدة ينتقد فيها قعود الأنصار عن نصرته[60]:

بقعودِكم في داركمْ وأميرُكمْ تُحْشى ضواحي دارِه النيرانا

ويصنف الوليد بن عقبة المتورطين في دم عثمان ثلاثة أصناف: صنف قتل الخليفة، وصنف آخر حرض على قتله، دون أن يكون لهؤلاء القتلة والمحرضين أوتار عنده يطلبونه بها، وصنف ثالث سلبه ماله وسلاحه بعد أن قتل[61]:

أفانينُ منهُمْ قاتلٌ ومُحَضّضٌ بلا تِرَةٍ كانت وآخرُ سالِبُه

وهو، أي الوليد، يجعل عليا، وبني هاشم عموما، في الفئة التي سلبت الخليفة سلاحه ويؤكد، في الوقت نفسه، أن بني أمية لا يفرقون بين من قتله ومن سلبه؛ ولذلك، لن تهدأ العداوة بين الطرفين، بل سيبقى الصدع في علاقتهما قائما، كأنها حجر انكسر فلا سبيل إلى رأبه[62]:

بني هاشمٍ رُدّوا سلاحَ ابنِ أختِكُمْ ولا تَنهَبوه لا تَحِلُّ منـــاهِبُه
بني هاشمٍ لا تَعْجَلوا بإقـادةٍ سواءٌ علينا قاتلوه وســـالِبُه
وإنا وإياكمْ وما كان منكُـمُ كصَدْعِ الصفا لا يَرْأبُ الصدعَ شاعِبُه

ومن الطريف أن روايات المؤرخين تخلو من أية إشارة تتماهى مع ما يذكره الوليد، هنا، من أن علي بن أبي طالب قد سلب الخليفة سلاحه. لكن المؤرخين لا يدونون كل الأحداث؛ ويمكن فهم ما جاء في شعره، هنا، على أن علي بن أبي طالب كان من الطبيعي أن يتخذ إجراءات لتأكيد سلطته بعد بيعته بالخلافة، فجرد معارضي هذه البيعة من أسلحتهم، سواء كانوا من بني أمية أو من سواهم.

على أن الوليد يعود في موطن آخر في هذه القصيدة البائية نفسها فيتهم بني هاشم بأنهم "قتلوا" عثمان كي يستولوا على الخلافة، كما فعل مرازبة الفرس حين قتلوا كسرى (أبرويز)؛ فهو يقول[63]

بني هاشمٍ كيف التعاقدُ بيننـا وعندَ عَليٍّ سيفُه وحَـــرائِبُه
لَعَمْرُكَ لا أنسى ابنَ أروى وقتلَه وهل يَنْسَيَنْ الماءَ ما عاش شارِبُه
هُمُ قتلوه كي يكونوا مكـانَه كما غَدَرتْ يوما بكِسْرى مرازِبُه

والشطر الأول من البيت الأخير يأتي في روايات مختلفة، منها ما يتفق مع هذه الرواية فيتهم بني هاشم بالقتل، ومنها ما يخالفها فيتهمهم بالغدر (غدرتم بعثمان/ غدرتم به[64]). والأرجح أن رواية "القتل" هي الصحيحة، فحرفها الرواة لتنسجم مع الحقيقة التاريخية خشية أن يؤخذ بيت الشعر على ظاهره، فيفهم الناس أن عليا شريك في دم عثمان فعلا، مع أن الوليد يقصد أن أداء علي أثناء حصار عثمان كان من الانحياز إلى صف المحاصرين، بحيث يصل إلى حد مشاركتهم في قتله. في الواقع، يعبر الوليد عن هذا القصد تعبيرا واضحا حين يتحدث في موطن آخر من شعره عن أن عليا لزم بيته بينما كان الناقمون يحاصرون الخليفة، وعن أنه "أغضى" عما يحدث، مع العلم أن هؤلاء الناقمين كانوا سيشيمون سيوفهم، كما يقول، ويفكون حصارهم، ويرجعون إلى بلادهم لو طلب منهم علي ذلك؛ فعلي، إذن، يشاركهم في الجرم، وإن اختلفت الوسيلة[65]:

وقالوا دُلَيْمُ لازمٌ قعرَ بيتِـه وما أمرُه فيما أتى بجَميـلِ
وما كان بالأمرِ الخَفَيّ مكانُه وما كان فيما قد مضى بضَليلِ
ولو قال كُفّوا عنه شاموا سيوفَهمْ وولّوا بغَمٍّ في النفوسِ طويلِ

ولكنه أغضى وكان سبيلُه سبيلَهُمُ والظلمُ شرُّ سبيـلِ
فكلٌ له ذنبٌ إلينا نَعُـدُّه وذنبُ دُلَيْمٍ فيه غيرُ قليـلِ

وهذه الصورة التي يعرضها الوليد ليست هي الصورة التي تعرضها معظم المصادر، على أية حال، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى البيئة المذهبية والسياسية التي أثرت في تحديد وجهة الروايات ذات العلاقة. فغالبية هذه الروايات تقدم علي بن أبي طالب على أنه توسط لتسوية الخلاف بين عثمان والناقمين عليه، على أساس وعد من الخليفة بأن يلبي مطالبهم، وعلى رأسها عزل ولاة الأمصار التي قدموا منها، أي عزل عبد الله بن عامر عن البصرة، وسعيد بن العاص عن الكوفة، وعبد الله بن أبي سرح عن الفسطاط[66]. وربما يفهم قارئ تلك الروايات أن علي بن أبي طالب كان لا يختلف مع الناقمين في عدالة مطالبهم، من ناحية، وانحراف الخليفة عن جادة الصواب في مراسيمه التي أدت إلى انتشار الإقطاع، من ناحية ثانية، وحاجة نظام العطاء إلى الإصلاح، من ناحية ثالثة، لكنه يفهم منها، في الوقت نفسه، أن علي بن أبي طالب لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعله، وأنه كان يرفض التعرض للخليفة بسوء[67]. ومع ذلك، هناك رواية تذهب إلى أن عثمان قال لعلي في لقاء جمعهما معا: "قطعت رحمي، وخذلتني، وجرأت الناس عليّ[68]،" وهي، بهذا المنطق، تتفق مع شعر الوليد بن عقبة.

وكما اتهم الوليد بن عقبة علي بن أبي طالب بقتل عثمان بن عفان بسبب تراخيه في رد الناقمين على الخليفة، فقد فعل ذلك أيضا مع كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. فهو يتهمهما بقتل عثمان اتهاما مباشرا، ويزري بهما لأنهما لم يجنيا من قتله شيئا[69]:

قولا لطلحةَ والزبيرِ خَطِئْتُما بقتلِ عثمانٍ بغيرِ قتيـلِ
ورَمْيِ أبي عمروٍ بكلِّ عظيمةٍ على غيرِ شيءٍ غيرِ قالٍ وقيلِ
فأصبحتما واللهُ بالغُ أمـرِهِ ولم تظفرا من عَيبِهِ بفتيـلِ

ويتابع خطابه لهما في ضوء خروجهما على علي بن أبي طالب مطالبين بدم الخليفة، فيشير إلى أن المطالبة بهذا الدم قضية توحدهما مع بني أمية، على الرغم من بغض هؤلاء لهما وثأرهم عندهما، ولذلك، فبنو أمية، كما يشير، يراقبونهما مراقبة حثيثة إلى أن يتحقق ما يشفي غليلهم وتقر به أعينهم[70]:

فإما جَدَعْتمْ بابنِ أروى أنوفَنـا وجئتمْ بأمرٍ كان غيرَ جـميلِ
فإنا وأنتمْ في البليّةِ عُصبـةٌ على صيْرِ أمرٍ من شَنَاً وذُحولِ
نلاحظكُمُ في كلِّ يومٍ وليلـةٍ بطرفٍ على ما في النفوسِ دليلِ
إلى أن نرى ما فيه للعينِ قُرَّةٌ فتلك التي فيها شفاءُ غليـلِ

ويتكرر اتهام طلحة والزبير بقتل عثمان في قصيدة أخرى، يؤكد فيها الوليد ما تتناقله الروايات[71] من أنهما بايعا علي بن أبي طالب بالخلافة، وأن بيعتهما له كانت عن رضا وطيب وخاطر[72]:

وقد بايعا غيرَ مُستكْرَهَيْن عليّاً وكانا له عــائلة

وهذه التهم التي يوجهها الوليد بن عقبة لعلي وطلحة والزبير بقتل عثمان تتناغم مع رواية منعزلة، تجعل الناقمين على عثمان مختلفين حول أي من هؤلاء الصحابة يؤيدون، وذلك تبعا للمصر الذي قدموا منه. فالمصريون، كما تقول الرواية، كان هواهم مع علي، في حين كان هوى البصريين مع طلحة، أما الكوفيون فكان هواهم مع الزبير[73]. ومن الطريف أن نجد رواية أخرى تنقض هذه الرواية نقضا مباشرا، فتبرئ عليا من المصريين، وطلحة من البصريين، والزبير من الكوفيين[74].

على أن اتهام الوليد بن عقبة لكل من طلحة والزبير بقتل الخليفة -وهو يقصد، بالطبع، أنهما لم يفعلا ما كان يجب عليهما أن يفعلاه لتثبيط الناقمين وردهم إلى أمصارهم- إنما يبدو غريبا بالنظر إلى أن كلا الصحابيين استفاد من سياسة عثمان في توزيع ثروة الفتوح، وبخاصة مرسومه الخاص بمبادلة الأراضي؛ إذ أتاح لهما هذا المرسوم أن يمتلكا قطائع واسعة في حوض الفرات، يعمل فيها آلاف العبيد، كما تذكر المصادر[75]. فإذا كان هذا صحيحا فلا مصلحة لهما، إذن، في أن يتغلب منطق الناقمين، الذين ثاروا على الخليفة بسبب ما عدوه استئثار بعض الصحابة بالثروة والنفوذ. ومع ذلك، إذا كان طلحة والزبير في موقع يمكنهما من فعل شيء لإنقاذ عثمان، كما نفهم من شعر الوليد، ولم يفعلا شيئا لإنقاذه، مفضلين إزاحته عن كرسي الخلافة، فإن التفسير المحتمل لموقفهما يعود إلى أنهما خشيا على مصالحهما في العراق من بلبلة الأوضاع هناك فأرادا أن تنتقل الخلافة إلى من يتبع سياسة أكثر حزما في التعامل مع الناقمين.

ومهما يكن من أمر، فإن العدو الرئيس لبني أمية، كما يظهر في شعر الوليد بن عقبة، هو علي بن أبي طالب، الذي تحول فأصبح العدو الأوحد، بعد أن انتصر في معركة "الجمل" وقتل طلحة والزبير؛ وهنا، بعد هذا الانتصار، ننتقل إلى مرحلة جديدة في شعر الوليد، هيمن عليها خطاب استنهاضي موجه إلى معاوية بن أبي سفيان.

فالثار لمقتل عثمان كان قضية أساسية لدى الوليد بن عقبة، ليس من منطلق سياسي وحسب، بل، وهو الأكثر بروزا في شعره، من منطلق شخصي أيضا. فهو والخليفة حملهما بطن واحد، ولن يغمض له جفن قبل أن يثأر لمقتل أخيه أو يموت دون ذلك، كما قال في موطن من مواطن عديدة عبر فيها عن حدة شعوره بفقد أخيه[76]:

نومي عليّ محَرّمٌ إن لم أقُـمْ بدمِ ابنِ أمي من بني العَـلاّتِ
قامت عليّ إذا قعدتُ ولم أقـم بطِلابِ ذاك، مناحةُ الأمـواتِ
عَذُبتْ حِياضُ الموتِ عندي بعدما كانت كريهةَ موْردِ النهْـلاتِ

ومن تلك المواطن قوله[77]:

طال ليلي ومَلّني عُـوّادي وتجافى عن الضلوعِ مِهادي
من حديثٍ نمى إلي فما تَـرْ قا دموعي ولا أُحِسُّ رُقادي
ليتني هلكتُ قبلَ حـديثٍ سَلَّ جسمي وريعَ منه فؤادي

وبما أن معاوية كان الوحيد بين رجالات بني أمية القادر، من موقعه بصفته واليا على الشام، على الأخذ بالثأر من المتورطين في قتل عثمان، فقد اتجهت إليه أنظار الوليد بن عقبة كما اتجهت إليه أنظار جميع الأمويين؛ ولذلك، يقول الوليد في مطلع أهم قصائده (رسائله) الموجهة إلى معاوية، مؤكدا قدرته على إعادة الخلافة إلى بني أمية[78]:

معاويَ إن الملكَ قد جُبّ غاربُه وأنت بما في كَفّكَ اليومَ صاحِبُه

ثم يعود في نهاية القصيدة فيكرر هذا المعنى تقريبا[79]:

فأقللْ أو آكثرْ ما لها اليومَ صاحبٌ سواك فصرّحْ لستَ ممن تُـوارِبُه

ومع أن الوليد كان يعول على معاوية في الأخذ بثأر عثمان وإعادة الخلافة إلى بني أمية، فإن خطابه، هنا، يكشف عن رجل مسكون بهاجس الخوف من أن ينخدع معاوية بعروض الصلح المقدمة إليه من جانب علي، وبالتالي، يتنازل عن المطالبة بحق بني أمية. ففي القصيدة البائية، المقتبسة أعلاه، يطلب الوليد من معاوية أن يرفض كتابا ورد إليه من علي؛ ومن بعض الإشارات في القصيدة نفهم أن عليا يعرض على معاوية أن يبقيه في مكانه واليا على الشام، مقابل مبايعته بالخلافة. ونفهم من هذه الإشارات أيضا أن لدى الوليد تحسبا من أن يقبل معاوية ما عرضه عليه علي، حتى يكسب الوقت ويستعد أكثر للدخول معه في حرب؛ ولذلك، يحذره من أن حيلته لن تنطلي على علي، وبالتالي، يحثه على أن يحاربه حرب رجل حر، أو يسالمه سلم رجل مستسلم، لن يقوى على أخذ حق بعد ذلك[80]:

أتاكَ كتابٌ من عليٍّ بخُطّـةٍ هي الفَصْلُ فاخترْ سِلْمَه أو تُحاربُه
ولا تَرْجُ عند الواترين مـودةً ولا تأمَنِ اليومَ الذي أنت راهبُه

فحاربْه إن حاربت حربَ ابنِ حُرّةٍ وإلا فسِلْم لا تَدُبُّ عقاربُـه
فإن علياً غيرُ ساحبِ ذيلِـه على خُدْعةٍ ما سوّغَ الماءَ شاربُه
ولا قابلٌ ما لا يريد وهــذه يقومُ بها يوما عليك نوائبُـه

وقد عبر الوليد بن عقبة بطريقة أخرى عن تخوفه من أن يعقد معاوية صلحا من نوع ما مع علي. ففي الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة، يبين الوليد مدى قبح ما سيأتيه معاوية، إن هو استجاب لكتاب علي، ثم يعرض بأسلوب أقرب إلى السخرية كيف ستبدو صورة معاوية في هذه الحالة: سيقول لمن يسأله من أهل الشام عن فعلته: إن عثمان اجترأ عليه أعداؤه؛ فمنهم من قتله بلا جناية ارتكبها، ومنهم من حضض على قتله، ومنهم من سلبه ماله وسلاحه، بينما أقاربه أسلموه وأعانوا عليه؛ وسيقول لهم أيضا: إني كنت أميرا عليكم، فيكفينا أن نقوم بواجب الحق ونجنح للسلم، وإلا فسيكون حالنا كمن يقف في وجه بحر هائج الموج[81]:

فإن كنتَ تنوي أن تُجيبَ كتابَه فقُبِّح مملیه وقُبِّحَ كاتبُـه
تقول: أميرُ المؤمنين أصابه عدو ومالاهُمْ عليه أقاربُـه
أفانينُ منهمْ قاتلٌ ومُحَضَضٌ بلا تِرَةٍ كانت وآخرُ سالبُـه
وكنتُ أميرا قبلُ بالشامِ فيكمُ فحسبي وإياكمْ من الحقِّ جانبُه
فجيئوا ومَن أرسى ثبيرا مكانَه ندافعُ بحرا لا تُرَدُّ غواربُـه

وهذا "التعريض" بمعاوية، كما يمكن أن نسميه، تكرر في قصيدة أخرى. ففي قصيدة ميمية، يخاطب الوليد بن عقبة معاوية ذاكرا رسل علي إليه تعرض إبقاءه أميرا على الشام، ويقول له: إن من يريد الأخذ بالثأر لا يبطئ عنه، بل ينهض إليه و"يغشم" في أخذه؛ ويقول له أيضا معاتبا ومستحثا: لو كان هو القتيل، وكان عثمان حيا، لسير الجيوش للأخذ بثأره دون أدنى تلكؤ أو تبرم[82]:

يمنيكَ الإمارةَ كلُّ ركـبٍ لأنقاضِ العراقِ بها رَسيمُ
وليس أخو التِراتِ كَمن توانى ولكنْ طالبُ التِرَةِ الغشومُ
ولو كنت القتيل وكان حيا لجرّد، لا ألف ولا سؤوم
ولا نَكِلٌ عن الأوتارِ حتى يُبيء بها ولا بَرِمٌ جَثومُ

فالوليد بن عقبة، إذن، كان يسيطر عليه هاجس أن يتوصل علي إلى اتفاق مع معاوية بحيث يضيع معه دم أخيه عثمان، أو أن يطول الوقت قبل أن يسير معاوية لحرب علي فيكون هذا الأخير قد أمسك بزمام الأمور تماما في العراق واستعد أكثر لإخضاع معاوية. ولذلك، نرى الوليد، في

قصيدته البائية، يشجع معاوية بالقول: إن الملك مقبل عليه، وينبغي له ألا يدع هذه الفرصة تفلت من يده[83]:

ولا تدعَنَّ المُلْكَ والأمرُ مُقبلٌ وتطلبُ ما أعيتْ عليكَ مذاهبُه

والواقع أن الوليد بن عقبة لم يكن، في "رسائله" هذه إلى معاوية، ينطلق من موقع الموتور وحسب، بل كان ينطلق أيضا، وهو الأهم، من خبرة وثيقة بمجتمع الكوفة حين كان واليا عليها. فهو يعرف أن أهل الكوفة، الذين شكلوا عامة جيش علي، كانوا منقسمين على أنفسهم بين فريق مستفيد من الانقلاب على عثمان، وفريق آخر متضرر منه، وبالتالي، غير متحمسين للقتال مع علي، بل كارهين له، وإنما خرجوا للحرب من أجل نيل أعطياتهم. وكان يعرف، في المقابل، أن معاوية كان يحظى بجيش متحد متماسك تحت رايته، وأن أية مواجهة بين الطرفين ستكون محسومة النهاية لصالحه؛ ولذلك، كان يؤمن أن "الأمر مقبل" عليه، كما قال له في القصيدة، أعلاه.

الخاتمة

يمكن القول، إذن، إن الوليد بن عقبة، في سيرته، من جانب، وفي شعره، من جانب آخر، كان صورة للصراع على الحكم في الدولة الإسلامية، سواء في حقبتها الأولى أو خلال الأحقاب اللاحقة. فالتهم التي هيمنت على سجله الإداري، وبخاصة تهمة "شرب الخمر"، إنما تكشف ليس فقط عن شراسة الهجمة التي شنها المعارضون لحكم بني أمية آنذاك، بل أيضا عن طبيعة تلك الهجمة. إذ لم يكن أولئك المعارضون يتورعون عن استخدام أية وسيلة ممكنة، مشروعة كانت أم غير مشروعة، لتحقيق مآربهم السياسية. ثم جاء الرواة بعد ذلك ليكملوا ما بدأه المتهمون، فتحولت التهم على أيديهم إلى إدانات للوليد، ملأت كتب التاريخ، والأدب، والتفسير، والحديث، والتراجم.

وإذا كانت سيرة الوليد بن عقبة الإدارية قد تشوهت على يد أعداء بني أمية سواء حين كانوا ممسكين بزمام الخلافة أو بعد انفلاتها من أيديهم، فإن شعره، في المقابل، جاء ممثلا لموقفهم في نضالهم من أجل الحكم، في فترة حرجة من تاريخ هذا النضال. ففي أوساط الجدل الذي كان دائرا حول شرعية قتل عثمان، فإن الوليد يؤكد في شعره أن عثمان قتل مظلوما، وأن قتله كان جناية كبيرة، وأن الثأر لمقتله يمثل واجبا دينيا وعصبيا معا. وهو لا يرى فرقا في ارتكاب هذا الجرم بين من حاصره ومن دخل إليه فقتله؛ ومع ذلك، فإنه يلقي بتبعته على بني هاشم، وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب. وقد ألح على هذا الموقف بحيث احتل بنو هاشم مساحة واسعة في شعره. وفي الأثناء، ظهرت حقائق وإشارات تتفق مع الرواية التاريخية تارة، وتختلف معها تارة أخرى، فكان شعره، بذلك، يمثل مادة تاريخية مهمة تستدعي الوقوف عندها في أية دراسة تتناول الحرب الأهلية الأولى في الخلافة.

Al-Waleed B. 'Uqba and His Political Poetry

Nabeelah Akef and **Irsan Ramini,** *Department of Arabic Language,Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This paper deals with a significant political figure in the early times of Islam, who also left for us a large poetic material centered almost entirely on the murder of the third Rashidi Caliph 'Uthman b. 'Affan—that's al-Waleed b, 'Uqba b. Abi Mu'ait. The purpose of this paper is to achieve a better understanding of al-Waleed's political and administrative career as well as his poetry output and, eventually, to get more informed on the hitherto historical realities and the importance of poetry in clarifying them. The paper comprises two sections. The first one is devoted to al-Waleed's administrative profile; the other one examines his poetry. In more details, the first section discusses two cases dominating al-Waleed's records: the claim by Qur'an expositors that it was he who is referred to by the defaming word "*fasiq*" in the *sura* of al-Hujurat, and the accusation against him that he led the dawn prayer, as a governor of Kufa, while he was drunk. The other section, for it's part, examines the murder of 'Uthman incident as presented in al-Waleed's poetry and attempts to figure how the Umayyds viewed it as against those common historical accounts affected by religious division.

قدم البحث للنشر في 2013/4/30 وقبل في 2013/8/28

الهوامش

1 ضيف، شوقي. العصر الإسلامي. القاهرة: دار المعارف، 1963. ص 60.

2 الحوفي، أحمد. أدب السياسة في العصر الأموي. ط4. القاهرة: دار النهضة، 1975. ص 16- 17.

3 بابتي، عزيزة. السياسة والأدب في العصر الأموي. طرابلس: دار الشمال، 1987. ص 33.

4 الجبيلي، سجيع وقصي الحسين. الفنون الأدبية في العصر الأموي. بيروت: دار الهلال، 2005. ص 43.

5 المقبل، نبيلة. شعر الوليد بن عقبة: جمع وتحقيق ودراسة. رسالة ماجستير. جامعة اليرموك. 2011.

6 ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (463هـ 1070م). **الاستيعاب في معرفة الصحاب**. تحقيق علي البجاوي. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1960، رقم 1552.

7 ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (852هـ 1448). **الإصابة في تمييز الصحابة**. تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005، ج6 ص481.

8 البلاذري، أحمد بن يحيى (279هـ 892م). **أنساب الأشراف**. تحقيق إحسان عباس. فيسبادن: فرانتس شتايدر، 1979، ج4 ص423.

9 ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله (475هـ 1082م). **الإكمال في رفع المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**. ط2. تصحيح عبد الرحمن المعلمي. بيروت: د. ن.، 1962، ج2 ص207.

10 البلاذري، أحمد بن يحيى (279هـ 892م). **أنساب الأشراف**. تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 2000، ج9 ص343، 345.

11 ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (230هـ 844م). **الطبقات الكبرى**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968، ج6 ص24.

12 ابن حجر، الإصابة ج11 ص142.

13 البري، إبراهيم بن أبي بكر (681هـ 1282م). **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة**. تحقيق محمد التونجي. العين: مركز زايد للتراث، 2001 ج1 ص56.

14 ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدين عبد الحميد (655هـ 1257م). **شرح نهج البلاغة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار الجيل، 1987، ج17 ص244-245.

15 ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ 889م). **الشعر والشعراء**. تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1982، ص183-184.

16 الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (356هـ 966م). **الأغاني**. تحقيق إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار صادر، 2002، ج5 ص90.

17 المنقري، نصر بن مزاحم (212هـ 827م). **وقعة صفين**. ط3. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، 1981، ص155.

18 الطبري، محمد بن جرير (310هـ 922م). **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، 1963، ج4 ص572.

19 انظر الإصفهاني 5: 161. وينقل الرواية كل من شيخو (لويس. **شعراء النصرانية بعد الإسلام**. ط3. بيروت: دار المشرق، 1982) ص75 والقيسي (نوري حمودي. **شعراء أمويون**. القسم الثالث. بغداد: مكتبة المجمع العلمي العراقي، 1982) ص32، لكن دون أية مناقشة.

20 الاستيعاب ج4 ص1553.

21 البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256هـ 869م). **التاريخ الكبير**. إعداد محمد بن عبد الكريم. الرياض: مكتبة الرشيد، 1999، ص 1223.

22 الاستيعاب ج4 ص1553.

23 أنساب الأشراف، تحقيق زكار ج9 ص344.

24 شرح نهج البلاغة ج3 ص20.

25 ابن عبد البر، الاستيعاب ج4 ص1553؛ ابن حجر، الإصابة 6: 481.
26 ابن حجر، الإصابة ج6 ص481.
27 الطبري، جامع البيان ج26 ص142؛ وانظر ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (543هـ 1148م). **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة**. تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد الاسطنبولي. القاهرة: مكتبة السنة، 2000، ص91.
28 البري، الجوهرة ج1 ص53.
29 ابن حبان، أبو حاتم محمد البستي (354هـ 965م). **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**. تحقيق مرزوق إبراهيم. القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991، ص 255.
30 السابق.
31 الطبري، جامع البيان ج26 ص142-143.
32 انظر الطبري، تاريخ (فهرس).
33 الطبري، تاريخ ج4 ص251-252
34 تختلف المصادر في سنة ولايته للكوفة بين أن تكون في 25 أو 26 (انظر السابق ج4 ص244، 251).
35 انظر التفاصيل في الإصفهاني ج5 ص139-142.
36 الطبري، تاريخ ج4 ص274.
37 ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر (774هـ 1372م). **البداية والنهاية**. تحقيق أحمد فتيح. القاهرة: دار الحديث، 1994، ج8 ص203
38 الإصفهاني، الأغاني ج5 ص143.
39 العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (395هـ 1004م) **الأوائل**. إعداد عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997، ص135.
40 الإصفهاني، الأغاني ج5 ص144.
41 ابن الشجري، هبة الله بن علي (542هـ- 1148م). **مختارات شعراء العرب. تحقيق علي البجاوي**. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1975، 550-551.
42 ابن حبان، مشاهير، ص33.
43 السابق ص31.
44 ابن الشجري، هبة الله بن علي (542هـ 1058م). مختارات شعراء العرب. تحقيق علي البجاوي. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1975، ص550-551.
45 الإصفهاني، الأغاني ج5 ص140-141.
46 المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن (742هـ 1341م). **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**. تحقيق بشار معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992، ج31 ص58.

47 في هذا التحليل، انظر الراميني، عرسان. "نظام العطاء: الصيغة الأولى وباكورة الانشقاق في الخلافة." **حوليات الجامعة التونسية** عدد 39 (1995) ص197-226.

48 هي القصائد ذات المطالع التالية (ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (314هـ 926م). **الفتوح**. بيروت: دار الندوة الجديدة، 1970، ج3 ص 192-193، 260، 260-261، على التوالي):

يقول لنا معاوية بن حرب أما فيكم لواتركم طلوب

تقدمت لما لم أجد لي مقدما أمامي ولا خلفي سوى الموت موصل

حللت المدينة رخو الخناق وقد كانت لنفس عند الحقم

49 شرح نهج البلاغة ج6 ص36-37.

50 المقبل، نبيلة. **شعر الوليد بن عقبة: جمع وتحقيق ودراسة**. رسالة ماجستير. جامعة اليرموك. 2011 ص 76. هذه القصيدة تنسب أحيانا إلى كعب بن مالك الأنصاري (انظر ديوانه (تحقيق سامي العاني. بيروت: عالم الكتب، 1997) ص 207).

51 السابق ص41.

52 السابق ص42.

53 السابق ص40.

54 السابق ص52.

55 السابق ص60.

56 الطبري، تاريخ ج4 ص380.

57 السابق ج4 ص382.

58 السابق ج4 ص388.

59 إن تمس دار ابن أروى منه خاوية باب صريع وباب محرق خرب

60 الديوان ص218. قارن حسان بن ثابت (حسان بن ثابت الأنصاري (54هـ 673م). **الديوان**. تحقيق وليد عرفات. بيروت: دار صادر، 1974) ص477.

61 المقبل ص20.

62 السابق ص 22-23.

63 المقبل ص23-25. ويقال إن الفضل بن العباس بن عبد المطلب رد على الوليد بن عقبة اتهامه فقال: سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا / فهم سلبوه سيفه وحرائبه" (انظر القاضي، النعمان عبد المتعال. **الفرق الإسلامية في الشعر الأموي**. القاهرة: دار المعارف، 1970، ص 326؛ طليمات، غازي؛ عرفان الأشقر. **الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة: قضاياه-أغراضه**. دمشق: دار الفكر، 2007، ص334-335).

64 الرواية الأولى في ابن أعثم، فتوح ج2 ص276، والثانية في المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (346هـ 957م). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، 1988، ج2 ص359.

65 المقبل ص53-55.

66 الطبري، تاريخ ج4 ص358-360، 370.

67 السابق ج4 ص353.

68 السابق ج4 ص364.

69 المقبل ص52. وهذا يؤكده حسان بن ثابت في قصيدة يرثي بها عثمان بن عفان، حيث يقول (ص 477):

من عذيري من الزبير ومن طلـــــــحة إذ جاء أمر له مقدار

70 السابق ص52-53.

71 الطبري، تاريخ ج4 ص427-429. هناك روايات أخرى تشير إلى أنهما بايعا عليا تحت التهديد (نفسه ج4 ص429-430).

72 المقبل ص55.

73 الطبري، تاريخ ج4 ص434.

74 السابق ج4 ص432.

75 انظر جعيط، هشام. **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**. ط4. بيروت: دار الطليعة، 2000، ص197.

76 المقبل ص31.

77 السابق ص32.

78 السابق ص19.

79 السابق ص21.

80 السابق ص19.

81 السابق ص20-21.

82 السابق ص58-60.

83 السابق ص20.

الأعمال المقتبسة

ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدين عبد الحميد (655هـ 1257م). **شرح نهج البلاغة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار الجيل، 1987.

ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (314هـ 926م). **الفتوح**. بيروت: دار الندوة الجديدة، 1970.

ابن الشجري، هبة الله بن علي (542هـ- 1148م). **مختارات شعراء العرب. تحقيق علي البجاوي**. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1975.

ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله (543هـ 1148م). **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة**. تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد الاسطنبولي. القاهرة: مكتبة السنة، 2000.

ابن حبان، أبو حاتم محمد البستي (354هـ 965م). **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**. تحقيق مرزوق إبراهيم. القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (852هـ 1448م). **الإصابة في تمييز الصحابة**. تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. **تهذيب التهذيب**. بيروت: دار الفكر، 1984.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (230هـ 844م). **الطبقات الكبرى**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (463هـ 1070م). **الاستيعاب في معرفة الصحاب**. تحقيق علي البجاوي. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1960.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276هـ 889م). **الشعر والشعراء**. تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1982.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (774هـ 1372م). **البداية والنهاية**. تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1985.

ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله (475هـ 1082م). **الإكمال في رفع المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**. ط2. تصحيح عبد الرحمن المعلمي. بيروت: د. ن.، 1962.

الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (356هـ 966م). **الأغاني**. تحقيق إحسان عباس وآخرين. بيروت: دار صادر، 2002.

بابتي، عزيزة. **السياسة والأدب في العصر الأموي**. طرابلس: دار الشمال، 1987.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256هـ 869م). **التاريخ الكبير**. إعداد محمد بن عبد الكريم. الرياض: مكتبة الرشيد، 1999.

البري، إبراهيم بن أبي بكر (681هـ 1282م). **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة**. تحقيق محمد التونجي. العين: مركز زايد للتراث، 2001.

البلاذري، أحمد بن يحيى (279هـ 892م). **أنساب الأشراف**. تحقيق إحسان عباس. فيسبادن: فرانتس شتايدر، 1979.

البلاذري، أحمد بن يحيى (279هـ 892م). **أنساب الأشراف**. تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 2000.

الجبيلي، سجيع، وقصي حسين. **الفنون الأدبية في العصر الأموي**. بيروت: دار الهلال، 2005.

جعيط، هشام. **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**. ط4. بيروت: دار الطليعة، 2000.

حسان بن ثابت الأنصاري (54هـ 673م). **الديوان**. تحقيق وليد عرفات. بيروت: دار صادر، 1974.

الحوفي، أحمد. **أدب السياسة في العصر الأموي**. ط4. القاهرة: دار النهضة، 1975.

الراميني، عرسان. "نظام العطاء: الصيغة الأولى وباكورة الانشقاق في الخلافة." **حوليات الجامعة التونسية** 39 (1995): 197-226.

شيخو، لويس. **شعراء النصرانية بعد الإسلام**. ط3. بيروت: دار المشرق، 1982.

ضيف، شوقي. **العصر الإسلامي**. القاهرة: دار المعارف، 1963.

الطبري. محمد بن جرير (310هـ 922م). **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، 1963.

الطبري. محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن** (تفسير الطبري). ضبط وتعليق محمود الحرستاني. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000.

طليمات، غازي؛ عرفان الأشقر. **الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة: قضاياه-أغراضه**. دمشق: دار الفكر، 2007.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (395هـ 1004م) **الأوائل**. إعداد عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

القاضي، النعمان عبد المتعال. **الفرق الإسلامية في الشعر الأموي**. القاهرة: دار المعارف، 1970.

القيسي، نوري حمودي. **شعراء أمويون**. القسم الثالث. بغداد: مكتبة المجمع العلمي العراقي، 1982.

كعب بن مالك (51هـ 671م. **الديوان**. تحقيق سامي العاني. بيروت: عالم الكتب، 1997.

المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن (742هـ 1341م). **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**. تحقيق بشار معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (346هـ 957م). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، 1988.

المقبل، نبيلة. **شعر الوليد بن عقبة: جمع وتحقيق ودراسة**. رسالة ماجستير. جامعة اليرموك. 2011.

المنقري، نصر بن مزاحم (212هـ 827م). **وقعة صفين**. ط3. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، 1981.